٦

التضمين في شعر إبراهيم طوقان

أسراء باقر مهدي الخنلي

أ.د.جورج خليل مارون

جامعة الجنان

طرابلس- لبنان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم الدراسات العليا

المقدمة

علم البديع أحد فنون البلاغة الثلاثة التي تمحورت حول النّص القرآنيّ، ومن ثَمّ النص الشعريّ، ثم ساد البديع في القرن الثالث الهجري بوصفه مصطلحًا يدلّ على نمط شعريّ معيّن قائمٍ على المبالغة في توظيف المحسّنات البديعية والبيانية.

واللغة الشعرية تعتمد على الفنون البلاغية في توصيل معانيها وأغراضها، لذا لا يمكن تفسير أي نص نثريًا كان أم منظومًا دون النظر في فنيته التي غالبًا ما يتطلّب الكشف عنها نوعًا من التأويل لا مجرد الوقوف على ظاهر ألفاظها، فالمعرفة بقضايا البلاغة إذًا شرطٌ لازم في تكوين أدوات الناقد والشارح الجيد.

والبديع يمثل درجة التمييز والابتكار، فهو العلم الثالث من علوم البلاغة، يزيد الكلام رونقًا وبهاء وزينة. ونظرًا لقيمته في تقوية المعاني وتحسين الألفاظ، والملاحظ في جهود هذا الشاعر عنايته بالجوانب البلاغية فبدأ بذلك واعيًا لدورها البلاغية للصور الفنية في وضوح الشعر أو غموضه، وما لتحليل هذه الصور من أهمية في إبراز المعنى ووضوح الدلالة.

ومن أهم عناصر البديع التضمين الذي يدل على براعة الشاعر في استخدام الأحاديث النبوية وأقوال الشعراء والأدباء في قصائده، الأمر الذي يحتاج إلى ثقافة واسعة، وخبرة طويلة في ربط الألفاظ والكلمات وتناسقها فيما بينها.

التضمين في شعر إبراهيم طوقان

التّضمين لغة واصطلاحًا

التّضمين في اللّغة:" هو من الضّمن، وهو إيداع الشّيء في شيءٍ آخر لحفظه وحمايته"[١]

وفي الاصطلاح:" هو أنْ يضمّن الشاعر في شعره من شعر غيره دون ذكره إنّ كان مشهوراً أو مع الإشارة إليه إنْ لم يكن مشهوراً " [٢]

والعلاقة بين المعنى اللّغوي والاصطلاحي واضحةٌ، حيث إنّ التّضمين في اللّغة إيداع الشّيءِ في شيءٍ آخر، وفي الاصطلاح أنْ يودع الشّاعر في شعره من شعر غيره.

التضمين في شعر إبراهيم طوقان

ورد التضمين في قصائد متنوعة من شعر إبراهيم طوقان، حيث كان له دلالات متعددة، ووظائف متنوعة، وسأوضح في هذا البحث التضمين الوارد في شعر إبراهيم طوقان وأبين وظائفها ودلالاتها.

في قصيدة "ذكرى حمية أهل الشام"، استخدم شاعرنا التضمين لتبيان حمية أهل الشام ومروءتهم، فهم أهل الكبرياء والجهاد، وفيهم الكثير من الشهداء الذين سقطوا دفاعًا عن أرضهم وعرضهم وأموالهم وشرفهم، ففي معركة ميسلون استشهد يوسف العظمة الذي يذكره شاعرنا في هذه القصيدة مستعينًا بالتضمين لتبيان شجاعته وقوته وعظمته، حيث يقول: (من الخفيف)

لك في ترب ميسلون دفينٌ كان للذائدين عنك مثالا

مات في ميعة الشباب شهيدا وكذا الحر لا يموت اكتهالا

في سبيل الأوطان سالت دماه "**ذي المعالي فليعلون من تعالى**"[٣]

وهذا مأخوذ من قول المتنبي[٤]: (من الخفيف)

ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا وإلّا فلا لا[٥]

وهذا من التضمين الذي نقل الكلمات والألفاظ كما هي من غير تغيير أو تبديل.

وفي قصيدة نزيهة التي عذبت الشاعر وأذاقتها ألم الفراق والهجران، بيد أنّ ذلك لم يجعل الشاعر يتوانى عن حبها، بل كان كل يوم يزداد حبها في قلبه، فهي حديثه وفكره وكل ما يدور في خلده وفكره، فإذا ما أراد الشراب يرى طيفها في الكأس، وإذا أراد الحديث كان حديثه عنها، وإذا أراد الشغل كان شغله بالتفكير فيها، وقد استخدم الشاعر التضمين لتبيان تلك الحال التي انتهى إليها، حيث يقول: (من المجتث)

أنت الحديث وشغلي لدى العشي وبكره[٦]

وقد ضمن الشاعر قصيدته شيئًا من شعر (سلطان العاشقين) ابن الفارض[٧]، الذي يقول: (من المجتث)

أنتم فروضي ونفلي **أنتم حديثي وشغلي**[٨]

لاحظنا أن التضمين لم يكن حرفيًّا، إنما غير الشاعر في اللفظ تغييرًا يسيرًا، بحيث بقي المعنى نفسه دون أي تغيير أو تبديل أو تعديل.

وفي قصيدة حطين التي نظمها الشاعر يوم عزم أمير الشعراء أحمد شوقي[٩] على زيارة فلسطين، فأخذ الأدباء يعدون العدة لإقامة مهرجان له، ولكن الزيارة لم تتم، وقد رمى شاعرنا إبراهيم طوقان من وراء هذه القصيدة إلى إثارة أمير الشعراء أحمد شوقي لينظم شعرًا في فلسطين وأرضها وشعبها، حيث يقول فيها: (من مجزوء الكامل)

وذرفت **دمعًا لا يكفـــ** **ـــكف** هيجته الغوطتان[١٠]

فقوله " دمعًا لا يكفكف"، هو تضمين من قصيدة للشاعر أحمد شوقي التي قالها في نكبة دمشق، حيث يقول : (من الوافر)

سلام من صبا بردى أرق ودمعٌ لا يكفكف يا دمشقُ[١١]

نلاحظ أنّ التضمين قد جاء به الشاعر كما ورد في قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي دونما تغيير أو تبديل، وهو يؤدي دورًا في تبيان أن شاعرنا إبراهيم طوقان يريد أن يقول لأمير الشعراء أحمد شوقي أنك كما ذرفت دموعك وبكيت حزنًا على نكبة دمشق، فليتك تبكيها وتذرفها على نكبة فلسطين، وما حلّ بها من الظلم والأسر والقتل.

"**إنّ غَداً لنَاظِرِهِ قَرِيب**"، هو من الأمثال التي وردت في كلام العرب، وقال الميداني[١٢] في كتابه مجمع الأمثال: "إنّ غَداً لنَاظِرِهِ قَرِيب، أي لمنتظره، يقال :نَظَرْتُه أي انتظرته وأول من قال ذلك قُرَاد بن أجْدَعَ[١٣]، وقد ضمن شاعرنا إبراهيم طوقان هذا المثل في شعره، حيث يقول في قصيدته التي يتحدث فيها عن فلسطين، البلد الكئيب الحزين، ويأمل من خلالها أن تكون الأيانم المقبلة هي أيام فرح وعز ونصر لأهالي فلسطين كلها، ويدعو أهلها إلى عدم اليأس وإلى التحلي بالأمل، فالظالم لا بد أن ياتي يوم وينال فيه عاقبة أعماله، حيث يقول: (من مجزوء الكامل)

يا أيها االبلد الكئيب حياك منهمر سكوب

لا تبتئس بالظلم إنّــ ـنَ غدًا لناظره قريب[١٤]

"**والشيء بالشيء يذكر**"، اختُلِف في أمرها أهي وردت عند العرب شعرًا أو نثرًا، فعندما سُئل الإمام الصنعاني[١٥] عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند رؤية الطيب العطر، قال بيتين من الشعر: (من الطويل)

يقولون هل عند الطيب يذكر أحمد فهل عندكم من سنة فيه تؤثر

فقلت لهم لا إنما الطيب أحمد فنذكره **والشيء بالشيء يذكر**[١٦]

وقد ذكر المبرد[١٧] وغيره أنه من أمثال العرب، وقال ابن شرف القيرواني[١٨]: (من الطويل)

رَأَت ظَبيَةَ الوَعساءِ عَيني فَهَيَّجَت لَها ذِكرَهُم **وَالشَي بالشَيءِ يُذكَرُ**[١٩]

وقد ضمن شاعرنا هذه المقولة في شعره، وبالتحديد في قصيدة "أين الرسالات"، التي يلوم بها حبيبته التي لم تعد ترسل له رسائل الشوق والحب، وفي ليلة وعندما رأى البدر ذكره نوره بوجه محبوبته، فقل: (من المجتث)

أسائل البدر حيرا ن عنك إنْ هو أسفرْ

ذكرت وجهك فيه **والشيء بالشيء يذكرْ**[٢٠]

وفي رثاء العلامة جبر ضومط[٢١]، أستاذ اللغة العربية في جامعة بيروت العربية، استخدم الشاعر التضمين، حيث ضمن قصيدته التي يرثي فيها هذا العلامة الراحل، كلامًا من قصيدة للمتنبي التي يمدح فيها سيف الدولة[٢٢]، حيث يقول: (من الطويل)

فكم من يدٍ بيضاء للعرب عندهم **ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا**[٢٣]

وقد ورد هذا الكلام في قول المتنبي: (من الطويل)

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم **ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا**[٢٤]

ومن التضمين الذي أخذه من المتنبي أيضًا، قوله في قصيدة، يرثي فيها عبدالمحسن الكاظمي[٢٥]، حيث يقول: (من البسيط)

ومن لغرّ القوافي وهي مشرقة **كأوجه البدويات الرعابيب**[٢٦]

وهو وارد في قول المتنبي: (من البسيط)

ما أوجه الحضر المستحسنات به **كأوجه البدويات الرعابيب**[٢٧]

الخاتمة

بعد هذه الجولة في رحاب قصائد إبراهيم طوقان، والتي من خلالها استخرجتُ ما ورد فيها من التضمين، توصلت إلى أنّ شاعرنا قد استخدم التضمين بكثرة، حيث إنّه ضمّن شعره كلامًا من شعراء العصور الأدبية المتنوعة، كأمثال المتنبي وابن الفارض وابن شرف القيرواني وأحمد شوقي، وقد كان التّضمين مأخوذًا من المتنبي بشكل كبير، ولعلّ ذلك يدلّ على حبّ إبراهيم طوقان للمتنبي وشعره.

بالإضافة إلى ذلك فأنّه قد ضمن قصائده أيضًا بعض الأمثال العربية التي وردت في كتب الأمثال، كأمثال مجمع الأمثال للميداني.

وقد أدت هذه التضمينات دورًا بارزًا في تبيان المعاني التي أراد الشاعر إيصالها إلى القارئ والسامع على حدّ سواء.

فهرست المصادر والمراجع

١. **الزركلي**، خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م.

٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٣١١م)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣. قاسم، محمد؛ ديب، محي الدين: **علوم البلاغة البديع والبيانيّة والمعاني**، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان، ط١، ٢٠٠٣.

٤. طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، دار القدس، بيروت، ١٩٧٥م.

٥. ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، د. ت.

٦. المتنبي، **ديوان المتنبي**، دار بيروت للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٣م.

٧. ابن الفارض، **ديوان ابن الفارض**، تحقيق: مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

٨. أحمد شوقي، **ديوان أحمد شوقي**، دار صادر– بيروت، ط٢، ٢٠٠٧.

٩. الميداني، **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة– بيروت، ٢٠٠٤.

١٠. الصنعاني، **ديوان الإمام الصنعاني**، مطبعة المدني، ط١، ١٩٦٤م.

١١. ابن شرف القيرواني، **ديوان ابن شرف القيرواني**، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ٢٠٠٢م.

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ٣/ ٢٧٥ –٢٧٨.

(٢) قاسم، محمد؛ ديب، محي الدين: **علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني**، ص ١٣٣.

(٣) طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، ص ٣١

(٤) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أَبُو الطَّيِّب المُتَنَبِّي :الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربيّ. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة وإليها نسبته.(**الأعلام** ١/١١٥)

(٥) المتنبي، **ديوان المتنبي**، ص ١٠٨

(٦) طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، ص ٤٧

[٧]ابن الفارِض(٦٣٢ هـ – ١٢٣٥ م) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين ابن الفارض :أشعر المتصوفين. يلقب بسلطان العاشقين. (الأعلام ٥٥/٥)

[٨] ابن الفارض، ديوان ابن الفارض، ص ٦٧

[٩] أَحمد شَوْقي (١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م)، هو أحمد بن علي بن أحمد شوقي: أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة، من أهمّ آثاره الشوقيات (**الزركلي**، خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م، ١٣٧/١)

[١٠] طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، ص٦٣

[١١] أحمد شوقي، **ديوان أحمد شوقي**، ص ٩٨

[١٢] أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوريّ، أبو الفضل: الأديب البحاث، صاحب مجمع الأمثال، ولد الميداني ونشأ وتوفي في نيسابور حاضرة خراسان، ونسبته إلى ميدان زياد محلة فيها. (الأعلام ٢١٤/١)

[١٣] المبداني، **مجمع الأمثال**، ٧٠/١

[١٤] طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، ص٨٢

[١٥] شعبان بن سليم بن عثمان، الصنعاني: نباتي طبيب، من شعراء اليمن، تركيّ الأصل، مولده ووفاته بصنعاء. له ديوان شعر، وكان يعتاش بالطب. ومدح الكبراء، وفلج في آخر عمره، فكابد فقرًا وفاقة إلى أن مات. (الأعلام ١٦٤/٣)

[١٦] الصنعاني، **ديوان الإمام الصنعاني**، ص٤٢

[١٧]محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثماليّ الأزديّ، أبو العبّاس إمام العربيّة ببغداد في زمنه، وكان إمامًا في الأدب والأخبار. ولد في البصرة، وتوفي ببغداد، وأخذ عن السجستاني والمازنيّ. من أشهر مؤلّفاته: "الكامل"، و"المقتضب"، و"شرح لاميّة العرب"، و"إعراب القرآن". (وفيات الأعيان ٣١٣/٣؛ الأعلام ١٤٤/٧).

[١٨]جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف، أَبُو الفضل الجذامي القيرواني :شاعر، أديب.أصله من القيروان. فارقها إلى الأندلس، واستوطن برجة من ناحية المرية، وكان شاعر وقته غير مدافع. له ديوان شعر وتآليف في الأدب والأخبار (الأعلام ٢٨/٢)

[١٩] ابن شرف القيرواني، **ديوان ابن شرف القيرواني**، ص٦٢

[٢٠] طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، ص٨٥

[٢١]جبر بن ميخائيل ضومط: أديب، خدم العربية تدريسا وتأليفا. أصله من حصن الأكراد بين بعلبكّ وحمص ومولده في برج صافيتا شمالي طرابلس الشام ووفاته ببيروت. (الأعلام2/108)

[٢٢] طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، ص١٠٦

[٢٣]علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي، أبو الحسن، سيف الدولة :الأمير، صاحب المتنبي وممدوحه . يقال :لم يحتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر! ولد في ميافارقين بديار بكر ونشأ شجاعًا مهذبًا عالي الهمة. (الأعلام ٤/ ٣٠٣)

[٢٤] المتنبي، **ديوان المتنبي**، ص١١١

[٢٥]عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن الكاظمي، أبو المكارم، من سلالة الأشتر النخعي: شاعر فحل، كان يلقب بشاعر العرب، امتاز بارتجال القصائد الطويلة الرنانة. ولد في محلة "الدهانة " ببغداد، ونشأ في الكاظمية، فنسب إليها. (الأعلام ٥٢/٤)

[٢٦] طوقان، إبراهيم، **ديوان إبراهيم طوقان**، ص١٧٤

[٢٧]المتنبي، **ديوان المتنبي**، ص٥٦